مُناقشات

بين قومية وقومية

بقلم عبد اللطيف شرارة

الفكرة ، أي فكرة ، عرضة للتشوه والتكش والسقم . قد يشوهها اخراجها ، والتعبير عنها ؛ ويسقمها فهم الآخذ بها ، او الباحث فيها ، وربما انكمشت وتقلصت حتى التفاهة ، حين يشرع في تطبيقها بعض المطبقين ...

هذا يفيد ان الفكرة لا تستقي قيمتها من ذاتها كفكرة ، وانما يظل مصيرها معلقاً على طريقة التعبير عنها ، ثم على اسلوب فهمها لدى الآخرين ، واخيراً على شخصية من يطبقها ويعمل بها وينقلها من حيز الذهن الى العالم الخارجي .

والفكرة العربية ليست « معرضة للكثير من الاخطار » ولا « هي محفوفة بالضباب والغموض » كما قرر الاستاذ عبد الله عبد الدائم في العدد السابق من هذه المجلة ، فالناس في هذه الديار ، في هذه المنطقة من الأرض ، في هذه البقاع التي يضيفون اليها نعت « العربية » يعرفون أنهم « عرب » ، وأن لهم حياة وثقافة وتاريخاً ولغة وروابط تربط بينهم ، متميزة عن حيوات غيرهم من الذين لا يسمون انفسهم ، ولا يسميهم غيرهم : عرباً . وابناء الامة العربية ، يدركون ، على وجه الاجمال ، ان لهم غايتين اوليتين هما : الحرية والوحدة ، وهاتان الغايتان هما اللتان يجاهدون من اجلها ، في المرحلة الراهنة من التاريخ .

الحقيقة هي ان الفكرة العربية محفوفة بالطفيليات والشعوبيات والعقبات والعراقيل والانحطاط المدني والتنازع الدولي ، لا بالضباب والغموض . وهذه الاشياء التي تحف بالفكرة العربية ، هي التي تمنع تحققها من جهة ، وتعوق سيرها من جهة ثانية ، وتجعل حولها هذا الجو الضبابي المصطنع ، حتى لتبدو للعيون – لبعض العيون – غامضة ، من جهة اخيرة ...

أما «ان الفكرة العربية جازت منذ زمن بعيد مرحلة العاطفة ، وغادرت ذلك الطور الذي كانت فيه فورة ضد استعمار عثماني او غربي » فهذا ما لا استطيع اقراره بحال من الاحوال ، لان الواقع لا يقره ، فالقومية من حيث هي قومية ، ليست غير عاطفة الفرد نحو أمته . والامة العربية لا تزال تعاني وطأة الاستعمار في كثير من اوطان ابنائها ، فاذا كان الكائن العربي قد اجتاز « مرحلة العاطفة » فهذا يعني انه لم يعد « قومياً » ! وانه فقد الصله العميقة الحقيقية التي تربطه باهله واخوانه واجداده . وتلك حالة لا يريدها له الاستاذ عبد الدائم . ماذا يريد إذن ؟

يريد من الفكرة العربية ، من الفكرة نفسها – تأمل ! – « ان تحدد خطوطها وترسم معالمها رسماً واضحاً ، فقد اصبحت مطالبة بتكوين مذهب عربي واضح العناصر ، يقابل المذاهب الاخرى السائدة في العصر الحديث ، وعلى رأسها المذهب الشيوعي » .

اكبر الظن ان الاستاذ عبدالدائم وقع في هذه الاخطاء الفكرية كلها ، لانه اتخذ القومية او الفكرة القومية ، حادثاً مستقلاً ، منعزلاً ، منفرداً ، واعتبرها كائناً قائماً بذاته ، يطالب باشياء ، وتجري عليه احكام ، ولم يفطن الى هذه الحقيقة البسيطة الواضحة ، وهي ان القومية مرتبطة بالامة ، متحدة بها ، فلا يمكن ادراكها ودرسها وبحثها الا من زاوية الامة او « القوم » اي ان القومية العربية شيء ، والقومية الالمانية او الفرنسية شيء آخر ، وهكذا ... الى ما هنالك من امم ... فحيث وجدت امة ، وجدت قومية تختلف عن غيرها من القوميات .

والقومية لا تدرس كفكرة ، كحادث ، كظاهرة ، كمعنى معزول عن لفظه أو إنائه ، وانما يمكن البحث فيها ضمن اطار الحضارة الانسانية وعلاقة كل امة بغيرها من الامم . والمذاهب الفكرية التي تنشأ في بعض فترات التاريخ ، انما تنشأ في امة متكونة ، حرة ، موحدة ، ولا يمكن ان تنشأ الفلسفات الا تعبيراً عن امة معينة ، في عصر معين ، نحو تحقيق حالة من الوجود جديدة ... فليس من المنطق في شيء ان نطالب الامة العربية اليوم بمذهب يقابل الشيوعية مثلا ، او يقابل الوجودية ، فالامر ، امر المذاهب الفكرية ، متروك بطبيعته ، وبالضرورة للامة الحرة الموحدة ولظروفها ، ولعبقريتها الخاصة ، ولا يجوز بمعنى من المعاني ، ولا بشكل من الاشكال ، ان تطلب الى احد ما ليس عنده ، او ما لا يمكن ان يعطيه ، في ظرف من الظروف .

كل ما يمكن ان تطالب به الامة العربية اليوم هو ان تكافح في سبيل استقلال اوطانها ، وأن تبذل ما وسعها البذل من اجل وحدة ابنائها ومقاومة اعدائها في داخلها وخارجها على السواء ، حتى اذا استقام لها ان تتحرر ، وان تتوحد ، انتجت من تلقاء نفسها ، ودون ان يطلب اليها ، ادباً جديداً ، وفلسفة جديدة ، ومذهباً جديداً ، وفناً جديداً ، تكون كلها تعابير عن العقل العربي ، والعبقرية العربية .

والتاريخ يثبت ان هناك نوعين من القومية : الاول هو القومية التي هي محض عصبية ، محض عاطفة ضيقة ، محض رغبة في السيطرة والاستعلاء والاستثمار . وفيه تدخل القوميات الأوروبية ، منذ تكونت امم اوروبا الى اليوم ، والثاني ، هو القومية الانسانية التي تراعي بها الامة معاني الحق والعدالة والايمان بالانسان والخير وما اشبه ، وتحمل منها رسالة لغيرها من الامم ، وقد ظهرت حتى اليوم ثلاث قوميات بهذه الاوصاف ، على مسرح العالم ، هي الهندية ، والعربية ، والروسية .

وهنا ، لا سبيل الى التفلسف والعاطفة ، فالتاريخ واضح ، اذ لم يؤثر عن الامة الهندية انها اعتدت على غيرها من الامم ، ولا ظهر لدى فلاسفتها ما يشير الى قسوة وغلظة وفظاظة وتزيين للشر ، وطمس للحقائق ، ولا وقفت يوماً تمنع على غيرها الحياة : هذي هي الانسانية !

وكذلك هو الشأن في الامة العربية ، فانها تكونت في خط انساني واضح ، ونشوء النصرانية فيها والاسلام لا يعنيان سوى انها انسانية الاتجاه . اما الصهيونية فليست غير امتداد الوثنية وعبادة الاصنام ، وتمرس بالاساليب الوحشية الاولى ، في مظاهرها الاخلاقية والسياسية ، ولهذا وجدت هوى في نفوس الغربيين الذين يناصرونها ، ويشدون ازرها ، ويساعدونها على العدوان في مسلكها الاخير !

اما الامة الروسية فلا اجد في تقرير واقعها ، افضل مما وصفها به احد ابنائها المشهود لهم بسمو العقل ، ونزاهة الخلق ، اعني الفيلسوف المظيم نقولا برديايف ، في كتابه « مصير الانسان » حيث يقول : « الادب والفكر الروسيان اظهرا عمقاً مدهشاً في الرأفة والعطف ، وكان لهما

اثر ضخم في انماء الوعي الاخلاقي لدى الانسانية . لقد كانت رسالة العبقرية الروسية المبدعة ان تنشر في الناس التراحم والحنان والعطف . والعقل الروسي لا يستطيع ، في ارقى ذرواته ، ان يطمئن سعيداً بينما يرى الآخرين من حوله ، بائسين . فالاكتفاء الذاتي ، والاغتباط الشخصي ، امران غريبان عن الوجدان الروسي الاخلاقي ، سواء في الجانب الفردي او القومي ، وان في الاسرة او الطبقة ، وهذا ما يلقي النور على رسالته الاخلاقية . ان الوجدان الاخلاقي لدى الروسي يضع الحب والرفق بالانسان فوق حب الدولة والامة ، وفوق العلم والمدنية ، والاخلاق المطلقة وما اشبه ذلك ... »

يجب ان اشير الى ان قائل هذا الكلام غير شيوعي ، بل هو من اعدى أعداء التفكير الشيوعي ، وقد نفته السلطات السوفياتية من بلاده ، لما اظهر من شدة في مقاومة النظام الشيوعي الذي ساد مؤخراً في روسيا . ومقاومته هذه للفكر الشيوعي تجعل لكلامه قيمة لا تعدلها قيمة ، فهو تعبير عن القومية الروسية من جهة ، وهو اقوى واقدر من غيره على ادراك الواقع في بلاده ، من جهة ثانية .

ونعود الى قضيتنا القومية في هذه البلاد ، فنجد ان الرسالة التي يحملها العرب كأمة ، لا تختلف في كثير ولا قليل عن رسالة العبقرية الروسية كما وصفها برديايف ، وانها تسير في خط الرسالة الهندية ، والرسالات الثلاث ذات طابع انساني واضح .

بقي ان اوضح نقطة تحدث عنها الاستاذ عبد الدايم وظلت غامضة هي ان « الغرب يمر (اليوم) في مرحلة هي مرحلة العودة الى القوميات » هذا صحيح ، ولكن عودة الغرب الى القوميات ليست في مصلحة امتنا العربية ، ولا مما يخدم رسالتها الانسانية ، فالغرب هو الذي غذى « القومية الصهيونية » ومدها بالعون والايد والقوة ، والغرب هو الذي يحاول انشاء « قومية كردية » في صميم البلاد العربية ، والغرب هو الذي يساند « القومية الاجتماعية » في لبنان وسوريا والعراق .. وجميع هذه القوميات تناوىء القومية العربية وتتربص بها الدوائر ، وتمنعها من تحقيق نفسها ، واداء رسالتها في العالم ، وهي التي تشوه الفكرة القومية في نفوس الناس . وتعطيهم عنها صورة بغيضة ، وتزين لهم الشيوعية .

على الغرب اذا كان صادقاً في تفكيره القومي ، في مناوأته للشيوعية ، وفي دعوته الانسانية ، ان لا يحول بين الشعوب وامانيها في الاستقلال والتحرر الوطني ، وان يعمل بما تمليه الديموقراطية الحقة من عدل ومساواة في معاملة الامم ، وبذلك وحده « يتضح في الاذهان ان الاممية تبعد عن الانسانية » .

اما القومية العربية فلا خوف عليها ، لانها انسانية النزعة ، بحكم انها عربية .

عبد اللطيف شراره

القومية ... ذلك المعبود !

بقلم محمد عماره

تحت عنوان « انسانية لا اممية » تناول الاستاذ عبد الله عبد الدايم ، بالعدد الماضي من « الآداب » ، قضية من قضايا الفكر العربي المعاصر لها اهميتها الكبيرة ، تلك هي قضية « القومية العربية » وكم هو جميل ومفيد لشعوبنا العربية ان يتناول مفكروها قضايا الساعة بالبحث والدرس والتحليل ... لكن ... شريطة ان يكون ذلك وفق منهج علمي سليم ونابعاً من واقعنا الذى نعيشه ، ومتمثلاً مستقبلنا الذي نرجو ان يكون اكثر اشراقاً ، واشد ما يكون بعداً عن مساوىء الماضي وسيئات حاضرنا الحافل بالسدود والعقبات . وهذا — مع الاسف — ما لم يتوفر في بحث الاستاذ الكبير ..

فهو يقرر « ان الفكرة العربية قد جاوزت منذ زمن بعيد مرحلة العاطفة وغادرت ذلك الطور الذي كانت فيه فورة ضد استعمار عثماني او غربي » وليس ذلك بحق ولا يمكن ان يكون ، فالفكرة العربية ، لم تكن في يوم من الايام « عاطفة » مصدرها من خارج نطاق الواقع العربي ، ولا كانت في وقت من الاوقات مجرد « فورة » — مجهولة المنبع — « ضد استعمار عثماني او غربي » بل انها كانت تياراً فكرياً نابعا من واقع شعوبنا المليء بجرائم المستعمرين اللصوص ، وايضاً تلك المرحلة الجديدة التي وصلت اليها بلادنا من مراحل تطورنا كشعوب تسير .. ليست وحدها — بل مع الانسانية الى الامام ، وهي لم تكن كذلك في الماضي وحسب ، بل لا تزال كذلك الآن ايضاً ، فما زال هذا الواقع موجودا لم يمت بعد ، وهو لن يموت الا بموت وزوال الاستعمار واللصوصية من اوطاننا العربية .

والفكرة العربية ليست كما يقول الاستاذ « مطالبة بتكوين مذهب عربي واضح العناصر « يقابل » المذاهب الاخرى السائدة « في العصر الحديث » فليس العرب هواة مذهب جديد ، ولا هم يريدون تكوين مذهب خاص . لمجرد كونه خاصاً بهم . ولا هم راغبون في « مذهب عربي » لا لشيء الا لـ « يقابل » المذاهب الاخرى . وما ذلك الا لان العصر الذي نعيش فيه ، قد اكد — بما لا يدع مجالاً للشك — ان التطور البشري انما يسير في طريق واحد الى الامام وان موكب الحضارة ، انما تؤلفه قوافل الشعوب — كل الشعوب — فليس لكل شعب تطور تاريخي خاص ، بل ان سلم الرقي والتقدم واحد غير متعدد ، والامر في هذا المجال لا يعدو اختلاف الامم والشعوب في درجات السلم التي وصل اليها كل منها ، من التقدم والتخلف فقط لا غير ... فرغبات الامم في مستقبل افضل لا يختلف باختلافها ، وامل الانسانية في مجتمع ارقى خط مشترك بين جميع الشعوب ... وليس الجنس او اللون او المناطق الجغرافية بخالقة للمذاهب المتعارضة ، بل ان الواقع الانساني — وهو مصدر المذاهب — ليدعو كل الشعوب الى سلوك الطريق — وهو طريق لا طرق — نحو التقدم والارتقاء .

ويتعرض الاستاذ الكبير في بحثه لتطور الفكرة القومية ، فينكر اننا سنخرج من نطاق القومية كما خرج اسلافنا من « التكتل القبلي والمنزلي والمدني » ولست ادري — ولعل الاستاذ لا يدري هو كذلك فهو لم يعلل — لم لا نخرج — مستقبلا — من نطاق القومية كما خرج اسلافنا من نطاق التكتل القبلي ؟.. هل وقف التطور عند مرحلة القومية ؟! وهل جد واقعنا العربي الذى انتج قوميتنا وجمدت معه حركة التاريخ ؟ ! ... الذي اعلمه ان التطور والواقع وحركة التاريخ لم ولن تقف ، او تتجمد في يوم من الايام .

وينهم الاستاذ مخالفيه في الرأي باتهامات لست بمتعرض لها وانما الذي يعنيني ، ذلك الميزان الذي يزن به الاستاذ فكرة من الافكار ، وذلك المعمل الذي يجري فيه التجارب على صحة او خطأ رأى من الآراء : « ان خير فاصل لفكرة من الافكار ظروف نشأتها ومخاضها » وليس ذلك بصحيح ، إذ ان المحك الذي به نعلم قيمة الفكرة وجدواها ، و « الترمومتر »

الذي عن طريق استعماله نحكم للفكرة او عليها ، انما هو التجربة والممارسة العملية ، ثم وزن النتائج، نتائج العمل وتقدير قيمتها بالنسبة لمصلحة الشعوب، ذلك هو المقياس وهو ايضاً الميزان. ويحاول الاستاذ ان يثبت ان «ظهور» الطابع القومي انما جاء نتيجة لطغيان الآلة في النظام الرأسمالي على حياة الانسان ، ونسي ان القومية قد نشأت مع الرأسمالية . وان « ظهورها » لم يتأخر حتى حلول هذا الطغيان .

على اني اعتقد ان الأستاذ انما كتب هذا البحث مستهدفاً تلك الدعوة غير الفريدة غير الجديدة !! والتي يلخصها فيقول : « ان الشيء الملائم لنطق الشعوب وحياتها ان ندعو الى اشتراكية قومية في مضمونها وشكلها » ولا شك ان في هذه الدعوة ما يذكرنا بالأسوف على « اشتراكيته القومية » هتلر .. وايضا موسليني ... وكل القطيع ?!! وذلك هو بيت القصيد ان لم يكن بيت الداء !!

وفي ختام البحث يفرق الاستاذ بين الانسانية والاممية ، مع انه لم يقل لنا ما هي الاممية كما يراها ، كما ان الانسانية عنده لا تعدو ذلك المعنى التجريدي غير المحدد ، والذي يسبح في محيط من الضباب .

وبعد .. فتلك كلمة دعت اليها خطورة الموضوع الذي تناوله الاستاذ عبد الله عبد الدايم ، ولعل القلم يكون قد وفق الى الصواب ، فالصواب هو الغاية التي نطلبها كي نجعل منها وسيلة لبلوغ مستقبل اكثر اشراقاً وأخف قيوداً بالنسبة للانسان .

القاهرة — **محمد عماره**

حول الشعر المصري الحديث ايضاً ...

بقلم صلاح الدين عبد الصبور

١ — الى الاستاذ كاظم جواد

١ — الحياة اولا : آفة بعض الادباء المحدثين انهم يبدأون من النهاية... فمن الواضح ان الاديب اولا انسان اجتماعي واع منفعل بالحياة، ثم هو من بعد ذلك معبر دافع ناشط في مجاله الكلامي . ولكن فئة منهم يسر لها التعبير ووهبت الغلبة في القول والذلاقة في اللسان ، ورأت ان الموقف الادبي الآن يتجه اتجاها معيناً . فتبنت هذا الاتجاه ، واستبسلت — بالغلبة في القول والذلاقة في اللسان — في سبيل هذا المذهب . وهي لم تفهم واقع حياتها وانواع صراعه . ولكنها من خلال نماذج عالية من الادب الواقعي تتخيل حياتها ثم يصور لها الوهم غير المحقق انها قد استبانت غاية، واستشرفت طريقاً . ولكنها من عدم ثبات موقفها في محنة خانقة . والا فما رأيك في اديب يقول :

« وانني لأعتز بان اشيد مذهبي النقدي على قيمنا الفكرية استناداً الى محاولات سبقنا فيها شعراء في هذا العالم لاقوا في حياتهم الادبية كل نجاح » ويقول « ليس هذا فقط فنحن عندما نتحدث عن قيمة ادبية ندعو لها فهناك استعداد مقابل لكي نزج بالنموذج ايضاً من انتاجنا »

وهكذا يتحقق كلامي ، قيمة ادبية تتقرر وتتضح في ادب عالمي ممتاز فنسرع بصب قصيدة في هذا القالب المأثور طمعاً في ان نلاقي في حياتنا الادبية بعض النجاح الذي لاقوه ..

لو سألت احدهم — وهو آمن مبتهج النفس — لماذا انت واقعي ? لأجاب « لأن المسرح للادب الواقعي ... وانا احب التمثيل » . ولو سألته « هل استبصرت بكفاح العامة في سبيل امتلاك الحياة ? » لقال « وما حاجتي، وقد قرأت لفلان وفلان و ... »

أما نحن ، فقد القينا بقلوبنا في المعركة . معركة احباب الحياة . وثملنا بانتصاراتها وبكينا انكسارها . وكان شعرنا سكرنا وبكاءنا .. ولا علينا من النماذج والتقاليد .. اننا نتنفس الحياة بشغف ومرارة . ونهدم ونهني ونبشر ونجدف . وقد يمسنا الشعر بجناحه فنلتهب . ولن يستطيع احد ان يحرمنا شرف المحاولة وقداستها وعمقها ..

٢ — اختلط علي الامر .. هل قصيدتي « الحزن » كتبت سنة ١٩٥٥ كما قلت ام سنة ١٩٥٢ كما اقول انا، وهل تسلت من القرن الثالث كما عدت انت فذكرت ام تقدس القرن الثالث العظيم عن هذه التفاهة .. وتبعاً لذلك هل نطبق عليها مقاييسك ام مقاييس الجرجاني . سيدي ! هل هذا طلسم ? اي المقاييس شئت فطبق، وكفاك شغلاً لي وللقراء .. الق بها في الجحيم او اكتبها في منشور وحذر منها الناس او افعل بها ما تشاء انت وذلك الشاعر الفرد الجهير الصوت الذي كتب رسالة من وراء البحار الى صديق ناقد فجعلها شاهدا على ضيقه بالشعر الحديث.. بصراحة لقد مللنا هذا واشباهه .

٣ — انتظر — علي شوق ولهفة — مجموعة « خمسون قصيدة» وسأفيد منها بقدر ما يستطيع ادراكي العاجز . وسأقرأها مثنى وثلاث ورباع وفي كل مرة ساذكرك على البعد شاكراً محباً. هذا ولم تعجبني — بصراحة — ابيات ماخادو : ليس فيها احساس بالمأساة كما قلت . ولعل ما اعطاها قيمتها التي ذكرت انها مكتوبة بأحرف لاتينية وانها منقولة من لغة غريبة الى لغة اخرى. اتراه قال اكثر من انه ضرب بالبنادق بعدان سار بينها تحت النجوم في الفجر . وسقط في غرناطته ? هذه ليست مأساة لوركا يا صديقي ... يجب ان يرتبط لوركا بالمعاني التي مات في سبيلها ، بالكفاح ضد الفاشية ... بالديموقراطية ... بالحرية

انظر : واتى السياف مسرور واعداء الحياه
صفعوا الموت لاحباب الحياه
وتدلى رأس زهران الوديع
. . .
كان زهران صديقاً للحياه
مات زهران وعيناه حياه
فلماذا قريتي تخشى الحياه

واقرأ في اول القصيدة اثر المأساة في النفوس القروية :

وثوى في جبهة الارض الضياء
ومشى الحزن الى الاكواخ ... تنين له الف ذراع
كل دهليز ذراع
من اذان الظهر حين الليل .. يا لله .. في نصف نهار
كل هذي المحن العمياء في نصف نهار
مذ تدلى رأس زهران الوديع ..

٤ — استوقفني نعتك النزعة الاقليمية بالوضاعة وآلمني. سأشرح لك موقف اخواني وموقفي من الاقليمية والعروبة والقومية وغيرها من الدعاوى .. اننا مصريون اولاً ، لغتنا العربية .. وليس هناك عنصر عربي خالص . فانت ادري بأن العنصرية زيف ودعاوى قاصرة اصطنعتها الفاشية حيناً والنازية حيناً آخر . ومن مظاهرها الآن اضطهاد الملونين وسفك دم

الابرياء في افريقيا وآسيا . ولن يدفعنا استنكارنا لهذه الاخطاء الى ان نصدر عن نفس ايديولوجيتها القاصرة المتعسفة . وفهمنا للواقع العربي فهم اكثر تقدماً ووضعية . ليس العرب اشرف الاقوام وليست اللغة العربية اشرف اللغات بل وليس هناك عرب بالمعنى العلمي للامة والقومية . . هناك مجموعة من الشعوب متحدة اللغة تواجه مع شعوب العالم الاخرى نفس المشاكل . ولها نتيجة لوضعها الاقتصادي والجغرافي مواجهة كاشفة للاستعمار المقنع برأس المال العالمي وللمستوى المنحط للحياة وللقصور في حاجات الملايين من ابنائها كما انها تصارع خيانات بعض اهلها . وفي كل شعب من هذه الشعوب تبرز قوة نامية صاعدة تحاول ان تقيم الحياة تبعاً لمفهوم علمي واقعي داخل اطار متميز من حاجات شعبها ووضعه التاريخي وارهاصات مستقبله . وكفاح تلك الشعوب كفاح موحد في خطه العام ولكنه منفرد في خطواته وسبله وله انتصاراته الخاصة وسماته ومعاركه . . ذلك ان لكل شعب من هذه الشعوب ذاتيته المنفردة . . فالفتح العربي لم يلغ تاريخ هذه الشعوب ولم يمح وراثاتها .

ان النظرة المتخصصة للصراع العالمي تتبين لك قوتيه الرئيسيتين . . . راس المال العالمي بمظاهره من استعمار وحكومات رجعية وكهانة غيبية وفلسفات عقيمة . . . وقوة اخرى عالمية ايضاً نامية دائماً نطمح انا والاصدقاء ان نكون من السنتها العالمية .

اننا بعيدون عن الهتافات الجوفاء والعنصرية المدعاة، مرتبطون في نظرتنا للواقع العربي بمنهج علمي . ولذلك لن ننزلق الى هذا الفهم الوثني للصراع العالمي . وسنعتز باقليميتنا (الشريفة) بوصفنا فيلقاً من الفيالق المجندة لاعادة بناء العالم ...

٥ – وردت في حديثك الفاظ الفصاحة والجزالة والسلاسة تنعت بها اللفظ الشعري .. هذا خطأ يتورع عنه الناقد الحديث . ليس اللفظ فصيحاً او جزلا في ذاته .. الألفاظ في القاموس جثث موتى وليس بينها تفاضل جرسي . ولكن الالفاظ تحيا في البنيان اللغوي فتستمد معانيها وايحاءاتها من النظم (وهذا كلام القرن الثالث الشريف) . اللغة مجموعة علاقات بين الالفاظ . ولو صح رأيك في فصاحة الالفاظ المجردة وجزالتها لقسمنا الفاظ اللغة الى قسمين قسم فصيح جزل وقسم غيره . واهبنا بالشعراء ان يحوموا على الفصيح الجزل ويعفوا عن غيره، وحبذا لو قمت انت بهذا الجهد وانفقت فيه وقتك .. فانك بذلك تحسن صنعاً .

لم يفسد الشعر العربي قدر اصطناع لغة خاصة ، فاصبح طلاسم لا يقدر على حلها الا الذين جاوروا في الازهر او تفقهوا في الكتب الصفر . وكان معيار شاعرية اللفظ ان يكون خارجاً لتوه من بطن المعجم .. اما السلاسة فحدثني كيف يكون الاسلوب سلساً : ابالصحة النحوية ام بالسلامة اللغوية ام بخلوه من التعاظل وتنافر الحروف؟ ليتك قلت شبيه ذلك . . . ولكنك لم تقل شيئاً لان الاسلوب يا صديقي ليس ما توهمت ، ليس الاسلوب هو اللفظ ولكنه التناول. وبهذا المعنى قال ناقد « ان الاسلوب هو الرجل».

اما اننا نتكلم اللغة التي كتب بها المتنبي اشعاره العالية فهذا كلام فيه نظر . . . اماتت لغتنا العربية بوفاة المتنبي وحفظت ووضعت في متحف ؟ الم تتطور ؟ . . الم تتغير بتغير الحياة فاختفت ألفاظ وخلفت مكانها الالفاظ اخرى ؟ . . لماذا تنمي الينا لغتنا بهذه القسوة ؟ . . الم يتميز ذوق المتنبي اللغوي عن ذوق امرىء القيس . وليس هذا ظاهرة تروع ولكنها بشرى بنماء اللغة وتطورها .

اللفظ يمر بمراحل . . . يجري على لسان الجيل من الادباء فيحيا ويكتسي مدلولا واضحاً وتتميز له علاقات بالالفاظ الاخرى وتشع منه ايحاءات واضحة، وذلك ليس تبعاً للصادفة، ولكنه خاضع لمناخ اقليمي معين ووراثات صوتية وفيلولوجية مرصودة، حتى اذا نفد ما فيه من ايحاء لبعد العهد بينه وبين العصر او لصعوبة صوتية فيه او لكثرة استعماله حتى فقد مدلوله وبلي كما يبلى الثوب الخلق انتقل الى خلف المسرح مخلياً مكانه لالفاظ اخرى يعطيها مدلولاتها وايحاءاتها لسان اديب قادر مستجيب لزمنه وجيله واهل لسانه .

ليس هناك اذن مقياس ثابت للفصاحة والجزالة، ولذلك لا تستغرب الدعوى التي بشرتها استاذنا بالجامعة من ضرورة تغيير منهج المعاجم فيجب ان يكون لكل لفظ تاريخه الخاص موضحاً دلالاته المتغيرة على مر العصور بترتيب زمني – ومبلغ علمي ان كثيراً من المعاجم الاوروبية تصنع بلغتها – اكراماً لها – هذا الصنيع . . .

٦ – واخيراً . . . سيدي ، اني لا استبين موقفك . . . وقد اخطأت حين وصفتك بالمادي الجدلي . . . وقد حيرتني . واني لاحاول ان اشد حملاقي لكي احسن رؤيتك . . . ولكن عبثاً . ولعلى ضعيف الرؤية ولعلك لست واضحاً . . . والسلام .

ب – الى الاستاذ بدر السياب

كنت اؤثر الا التقي بك في هذا المكان . . فان لك لشعراً باهراً . ولم تفسد الخصومة ذوقي بعد . ولكن ما حيلتي ، وقد برزت اليّ تحمل سلاحك منفعلا كفارس صليبي . . لقد قرأت في العروض قليلا وهو يسمح لي ان اقول ان ما اخذته عليك في رجزك لا يقل مغالطة عن ما اخذته علي . اما البيتان اللذان جئت عليهما المطبعة فلي العذر ، فاولهما غير مفهوم سواء اكان سماً او سلماً . وانا – واقسم بجميع المقدسات – لم افهم هذه القصيدة وسواها من قصائدك الملحمية الاخيرة ، ويشاركني هذا الاثم الكثيرون . ونتيجة لعدم فهمي لم افطن الى احتمال الخطأ المطبعي . .

اما من حيث القائمة الموعودة فآتية قريباً . ولكن انظرني بعض الوقت حتى اشتري كتاب العروض واجلس اليه والى شعرك واقطعه بيتاً بيتاً لاتبين ما فيه من خبن ووقص وطي وقبض وترفيل وتذييل . ولا بد انك ترثي لي الآن لانني ساشغل نفسي بهذا العمل الخائب والسلام ...

القاهرة — **صلاح الدين عبد الصبور**
من الجمعية الادبية المصرية

معركة الوعي العربي

بقلم سامي عطفه

مما قاله الدكتور كمال يوسف الحاج في باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » تعليقاً علي مقالي « شريعة الهدم في الانجيل الضائع » ما يلي : « ان التاريخ لم يصبح علماً كيمياً غير قابل للجدل ، هو كيف ذي حدين يمكن اعتباره الى فوق كما يمكن اعتباره الى تحت وفق ما يختلج به المؤرخ من نزوغ او نزوع .» ثم اشار ايضاً الى ان « التطور لا يحصل الا بحركة جدلية » .

هذا هو القول الذي انتقيته من كل ما كتبه الناقد الكريم حول مقالي وتركت ما ورد قبله وما اتى بعده لاؤكد للاستاذ قدري قلعجي حسن

نبتي ، في اي نقاش كنت فيه طرفاً ، ثم لانه قد كشف عن حقيقة مهمة بالنسبة لدراسة التاريخ كما هوبالنسبةللفكر التأملي والفكر الموضوعي،وهذه الحقيقة هي الجدل(الديالكتيك) العلمي ، فما هو هذا الجدل ؟ ليس الجدل مشادةولاخصومة في القول همها اقامة الحجة على الخصم كيفما اتفق باستخدام المنطق الصوري تارة والبراعة الادبية تارة اخرى .

ان الجدل هو الانطلاق من الجديد بالمشكلة ، وتنظيمها على اساس جوانبها المتعارضة تعارضاً يسير بالمشكلة قدماً في طريق الكشف ، والحادثة التاريخية المركبة من جملة من الدوافع وتصارع القوى في حاجة قصوى الى الجدل ليكشف عنها ، فاذا ما اثيرت الحادثة التاريخية ، في ثوبها الكلامي بدت منسجمة في السطح ، الا ان عمقها يكشف عن جوانب متناقضة ، يفضح بعضها بعضاً ، ويكمل بعضها بعضاً ، فتبدو عندئذ الحادثة التاريخية ملتهبة بالحياة والنماء .

هذا بالنسبة الى دراسة التاريخ ، لكن الدكتور الحاج قصد في كلمته الاولى ان البعض يطيب لهم ان يناقضوا الحقيقة التاريخية بابراز نقيضها ، ليس من اجل حقيقة تاريخية ولكن لان النية الخبيثة تدفعهم الى ذلك . واما كلمته الثانية « التطور لا يحصل الا بحركة جدلية » فقد قصد بها الى ان التاريخ لا يتقدم ولا يتطور إلا بحدوث جملة من التناقضات التاريخية التي يدعو بعضها بعضاً ، فيتناوب التقدم والتأخر والرقي والانحطاط والعدل والظلم الخ .. من المتناقضات ، وكأني بالدكتور الحاج يعني بذلك ان حوادث العنف والطغيان في التاريخ العربي لم تكن شاذة ابداً ، بل هي طبيعية تماماً ، حيث ان تحقق العدل في فترة من فترات التاريخ يدعو بكل بساطة الى حلول فترة من الظلم والجور ،كما يدعو حلول المساوىء والفساد الى الاصلاح والثورة .

وعلى كل حال فان الجدل يهدف الى غاية رغم الصعوبات والمشاكل التي يثيرها في حركته الغريبة،وهذه الغاية هي الوعي الكامل غير المنقوص. وعندما نسقط هذه الغاية الرفيعة نكون قد اسقطنا المذهب الجدلي بكامله ، ولذلك فان اية دراسة للتاريخ العربي يجب ان تحمل معها غايتها الرفيعةوهي تحقيق الوعي القومي في نفوس العرب .

وتاريخنا العربي ، الذي بقي مستوراً بحجب قاتمة كثيفة ، في حاجة إلى الكشف عنه ، كشفاً تاماً لا مواربة فيه ، فنحن العرب نقف اليوم في ظرف خاص جداً ، اننا نريد ان ننطلق الى المستقبل ولكننا نقف حائرين مضطربين لا نملك الثقة الذاتيه على اقتحامه . فاذا كانت عوامل فقدان الثقة متعددة فلا شك في ان اهمها هو جهلنا جهلاً مطبقاً هويتنا التاريخية،وما ذلك الا لان تاريخنا عالم مغلق امام اعيننا فلا ندركه ولا نتحسسه .

وسبب هذه العلة هو في ان الدراسات التي حاولت الكشف عن التاريخ العربي كانت تتسم بالسطحية ومسايرة القواعد القديمة التي تناولت التاريخ او اتباع السنة التي سار عليها المستشرقون ،يضاف الى ذلك فقدان المؤرخين المتخصصين لهذا العلم بين العرب ، ولقد ترتب على ذلك كله ، السطحية بكل اخطارها وبشاعتها وتفاهتها في اعطاء قيم يسار عليها في المستقبل . ولقد كانت الدراسات التاريخية تتناول الحادثة التاريخية بكل كثافتها المادية فتقيم سلسلة مترابطة ظاهراً ، من الحوادث تسمى تاريخ امة .

ان المذهب السائد في دراسة التاريخ العربي الذي يعنى ببغداد والخلفاء والغزوات ويشيد باعمال البطولة ويهمل جوانب الحادثة ، هو مذهب يغمر التاريخ بدل ان يرفعه ، ويظلله بدل ان ينيره . والجدير بالذكر هو ان الانقلابات الخطيرة التي كان لها الاثر العميق في التاريخ ، اغفلت اهميتها فلا يمكنك تمييزها الا بالفاصلة الزمنية فحسب ، كما اغفلت القضايا التي سببت هذه الانقلابات ؛ فمثلا يقال ان النفوذ الأعجمي هو الذي تسبب في سقوط الدولة العباسية ، ولكن احداً من الخلفاء العباسيين غير مسؤول عن ادخال هذا النفوذ .

حتى لكأن التاريخ ما زال يحمل الطابع الشخصي . فنرى المؤرخين يخافون ان يحللوا حادثة من الحوادث ، فيهملوها عمداً . فتبقى اسماء كعبد الرحمن الداخل وابي عبدالله الصغير والمنصور والمعتصم والرشيد والمستعصم اصواتاً عابرة لا تترك في النفس اي صدى مع انهم هم الذين رسموا خط التاريخ العربي . كما ان جملة من الاعتبارات القديمة ما زالت قائمة في الاذهان رغم ثبوت فسادها ، فيعرف الحجاج مثلاً بأنه طاغية فاسق .

وعلى كل فان القصد من دراسة التاريخ دراسة جدية سوية ، هو ان نخلق الوعي القومي في الشباب العربي ، وليس مجرد التغني بما كان ، كما اتهمني بعضهم بذلك ، فقال بأنني اعيش الماضي واريده مذهباً خالياً من من العيوب ، أو بالاحرى اكره ان ينبش امرؤ عيوب هذا التاريخ أمام عيني ، ومن هذا البعض الاستاذ قدري قلعجي الذي قال في رده علي بأنني اعيش الماضي وانني « من اجل ذلك حريص على قداسته وصفائه ، يبرئه من العيوب وينزهه عن الاخطاء . وإن فعل ذلك على حساب الحاضر والمستقبل .. حاضر العرب ومستقبلهم . »

انني في الحقيقة قد دهشت لهذا القول ، لانه يعني احد امرين ، فأما ان يكون حضرة الناقد قد اساء فهم ما كتبته عن التاريخ العربي في مقالي المذكور آنفاً ، وإما أن يكون قد قصد الى احداث مغالطة ضخمة في دفاعه . لن تكون ابداً في صالحه .

الحقيقه هي انني لم اطلب الاسطورة البراقة من التاريخ ، ولا ان يكون مصدراً لسعادة كاذبة ، ولا ملجأ للهرب . بل كل ما ابتغيه هو أن ادافع عن التاريخ العربي أمام رجل يدعي ان العرب عبيد تاريخ ، واذا كنت اقيم للماضي اهمية بمعزل عن المشاحنة فذلك لانني اريد أن اتزود بشيء من الماضي،بروحه وشخصيته في سيري نحو المستقبل وفي عملي الحاضر الراهن ، وانني لاؤكد ذلك رغم ادعاءات حضرة الناقد .

لقد كان التاريخ العربي انعكاساً لنشاط الشخصية العربية ، وكان بعنوانه وآدابه وعمرانه تعبيراً عن الروح العربية ،فاذا كنت اقصد الى خلق نهضة جديدة للعرب ، فما لا شك فيه أن هذا العمل يقتضي مني أن انهل من الماضي الغني . انني اؤمن بالتاريخ العربي لاني اؤمن بالشعب العربي ، واميل الى تقييم التاريخ العربي لاضع في يمين الشعب العربي امكانيات تدفعه الى العمل والنشاط ، ولقد ذكرت في مقالي « شريعة الهدم في الانجيل الضائع » ان الشعب كالهرم قاعدته في تاريخه الماضي وذروته في تاريخه المستقبل ، فاذا نسفت قاعدة الهرم تقوضت ذروته ، واذا اهملنا ماضي الشعب فاننا نهمل ايضاً مستقبله.وهذا يوضح انني لم ادع القصيمي في مقالي ذاك الى ترك النضال في الحاضر . وانما دعوته الى العمل على اساس سليم..!

واعتقد ان القارىء الكريم سيجد بعض الغرابة، على الاقل ،في قول الناقد الحصيف: « على انني لا استطيع ان افهم كيف يكون من واجبنا ان نقدس الميت من التاريخ، ولا تثريب علينا اذا ازدرينا الحاضر الحي ؟» الحقيقة هي انني لم أقل شيئاً من هذا القبيل، فانا لم ادع الى احتقار الحاضر. ولم اقرر الأمر على هذا النحو . لكن لنتأمل قليلاً هذا التعبير « الميت من التاريخ » ويجدر بي هنا ان اسأل الاستاذ قلعجي هذا السؤال العادي المنسجم مع رأيه في الماضي والتاريخ. لو عرض على الاستاذ قلعجي ان يتخلى

عن جنسيته العربية وان يتجنس بالجنسية الامريكية او التركية ، فما ترى يكون موقفه من ذلك ؟. والاجابة بسيطة وهي ان الكاتب الذي يحتقر ماضي امته وتاريخها لايجد بأساً في اتخاذ هوية اخرى . خاصة وانه يستطيع ايضاً ان ينشط في الحاضر والمستقبل عن اساس هويته الجديدة ..!

ولقد اساء الاستاذ قلعجي ايضاً فهم غايتي في الحديث عن حاضر الامة العربية ، بل لاقل انه قد فهم اقوالي رأساً على عقب . فانا لم اشتم حاضر الامة ، وانما المحت في مقالي ذاك الى عوامل الضعف التي تشبثت بحاضرنا ، وما احسب ان هناك رجلاً آخر يدعي اننا الآن في عصرنا الذهبي الا اذا كان قانعاً بهذا الحاضر ، وانني اعود الى التأكيد مرة اخرى ان واقعنا الآن واقع سيء ، وليس ابلغ في الدلالة على انحطاط حاضرنا من الاشارة الى فقدان العرب السيادة في فلسطين ، حيث طردوا منها ليحل في ارضها شعب غريب ، والى انه بينما يتمزق المغرب العربي بنيران الاستعمار الفرنسي واساليبه القاسية نجد سفراء فرنسا يتصدون موائد الحفلات الرسمية في دمشق وبغداد وبيروت والقاهرة .

وعلى كل حال فانني لم اشر على الاستاذ قلعجي ان يمنح الحكام العرب ثقتهم او يحجب عنهم هذه الثقة كي يصبح قومياً عربياً شريفاً ، فقد تركت لذكائه الخيار في هذا الشأن وان ابسطوعي سياسي يجعلنا ننتقد الحكام عندما يخطئون او يسيئون ، ونصفق لهم عندما يحسنون .

وان من اطرف ما ورد في مقال الاستاذ قلعجي ، حديثه عن الاستعمار ، ورغم ان هذا الحديث موجه الى الدكتور عبد القادر القط ، فانه لمما يسعدني ان اجيب الاستاذ قلعجي بالسؤال التالي : « اعتبرت ان التأخر سابق تاريخياً على الاستعمار ، فلماذا لم تحدد في قولك زمان التأخر وبدايته؟!. وما هو التأخر وما هو الاستعمار ، في التاريخ العربي ؟»

لقد قال الناقد ان التأخر يمتد تاريخياً الى ما قبل العهد التركي بزمن طويل ، وهذا حق ، واني اقره على هذا القول ، غير ان الاستعمار يمتد ايضاً الى ما قبل العهد التركي بزمن طويل اي انه يرافق التأخر ، وهذا ما لم يقرره حضرة الناقد بل انه ليزعم أن التأخر هو سبب هذا الاستعمار ، وبذلك لا يكون قد افسد فكرته الاولى فحسب ، بل انه ليشير بذلك ويؤكد بان التأخر شيء طبيعي في النفس العربية ، وصفة اصلية من صفات الشخصية العربية ، وفي هذا تجاوز لم يبلغه الاستاذ عبدالله القصيمي وما بلغه ايضاً السيد هنري مارتن الذي جرد الشخصية العربية من حوافز النشاط الانساني.

ذلك اننا لو قلنا بان التأخر او عوامل الانحطاط ، صفة طبيعية للشخصية العربية ، لكان ذلك يعني ، ان العصر الوسيط العربي كان طبيعياً ، ولم يكن شاذاً ان نقع في قبضة الاحتلال التركي ، ثم ان لا يكون لنا اي امل بالمستقبل ، اذا كان عامل التأخر طبيعياً فينا ؟

ان الاستعمار ، هو ان يفقد شعب سيادته بتسلط شعب آخر عليه ، والاستعمار قد يكون سياسياً او اقتصادياً او اجتماعياً ، وقد يكون جامعاً لهذه المجالات جميعها . ومن ناحية اخرى نجد أن الاستعمار قد تطور كثيراً وفي صور شتى عبر التاريخ ، وصورة الاستعمار في التاريخ العربي هي الحركة الشعوبية ، التي جمعت ميول الاعاجم الى استغلال السيادة العربية .

ولقد استغلت الحركة الشعوبية كل مظاهر الحياة العربية فتسربت الى الفكر والفن والادب ، كما تسربت الى الدين والسياسة ، وعملت بصورة خاصة على تبني عناصر اليسار في الدولة العربية من الطامعين بالخلافة ، إلى الناقمين على السيادة العربية ، فتبنت الدعوة العباسية ومن بعدها الدعوة العلوية ، وعملت على انتشار الدعوة العباسية ، ايام الامبراطورية الاموية العربية ، حيث بلغت السيادة العربية ذروتها ، واستقطبت الاعاجم في الاطراف الشرقية ، وحدثت موقعة الزاب الشهيرة التي كان فيها انتصار الشعوبية على العربية ، مبطناً بانتصار الاسرة العباسية على الاسرة الاموية ، غير ان الخلفاء المشاهير في الحقبة العباسية ، رأوا خطر الحركة ، فقلموا اظافرها . فقتل المنصور أبا مسلم ، وقتل الرشيد البرامكة . غير ان الشعوبية عادت بسرعة فانتصرت انتصاراً كاسحاً على يد المأمون الذي زحف بجيش فارسي ليدمر العاصمة العربية . لقد كان المأمون ابناً لفارسية ، كما كان المعتصم من بعده ابناً لتركية فألف الجيش التركي ، بينما تفرق الجند العرب ليمارسوا الزراعة في الاقاليم .

ولقد كان احرى بالناقد ان يدرس الامر ولو قليلاً ، فالاستعمار الحقيقي بدأ منذ انحلال السيادة العربية ، وليس التأخر هو سبب الاستعمار كما زعم ، بل ان الاستعمار هو سبب التأخر .

ويتبسط الاستاذ قلعجي في حديثه عن الاستعمار فيسأل الدكتور عبد القادر القط ببراعة :

– « وما رأي الدكتور في ان الاقطار التي لم يدخلها الاستعمار هي اشد الاقطار العربية تأخراً ؟ »

ويحمل تساؤل الناقد المتحدي هذا معنيين ، اولهما ، أن يكون الاستعمار قد اوجد التقدم والرقي في الاقطار المستعمرة ، فيكون الاستعمار بذلك مفيداً (!) في علاج التأخر والانحطاط ، وفي نقل مدنية الغرب وحضارته ..! وثانيهما ، ان يكون الاستعمار بوسائله البربرية ، قد أثار الوعي الوطني وحفز هذه الأقطار على التحرر ..

ولكننا لو اهملنا الاحتمال الاول ، لرأينا ان الاحتمال الثاني اقل موضوعية من الاحتمال الأول ، وان كان يدل على الذكاء . اذ ان اي مراقب للاحوال التي سادت في الوطن العربي يدرك ولا شك ان درجة الانهيار واحدة في جميع الاقطار العربية ، فعندما اصاب الانحطاط سوريا اصاب مصر والحجاز واليمن والمغرب العربي . واذا نهضت مصر مثلاً لم نجد باقي الاقطار الا ناهضة معها . وهذا التوازي في حالة الاقطار الذي يشبه القدر التاريخي ، لم يخطىء الا قليلاً في جميع ازمنة التاريخ .

ونجيب الناقد على تساؤله ، بتساؤل آخر « اين هي الاقطار التي لم يمسها الاستعمار ، ولم يدخلها . اهي اليمن ؟ لقد سميت اليمن مقبرة الاتراك .. والحقيقة كما قلت ان السؤال غير موضوعي لاننا لا نستطيع ان نسمي قطراً عربياً واحداً لم يدخله الاستعمار .

والواقع ان الناقد قد اخطأ ايضاً ، فالمواطنون العرب على درجة واحدة من الوعي ، فالمثقف في جنوبي الجزيرة العربية لا يختلف عن مثقفي سوريا ولبنان والمغرب العربي ، كما ان الرأي العام العربي ينفعل بدرجة واحدة ويهتز بمجموعه لنفس الاحداث ..

ان العودة الى التاريخ العربي واحياءه ، ليست هرباً كما يزعم الناقد بل هي انكباب على الماضي العربي لدرسه بصورة وافية ، وهذا التاريخ عدا كونه يقدم لنا العبر والعظات من اجل تفادي الاخطاء في المستقبل . فانه يمتاز ايضاً بانه كان انعكاساً لما تتضمنه الذات العربية من وجدان عميق وعقلية حضارية راقية وخلق رائع قويم . هذه هي الدعوة الى الماضي . حركة فاعلة ومنفعلة ، لا كما ادعى الناقد بأنها حركة رجعية هاربة من واقعها ... الخ ! . ومن المؤكد ان بين دعوتي الى الماضي ، وهي دعوة مقتبسة عن قادة الاجيال العربية الناهضة ، وبين دعوة الاوروبيين الى ماضيهم ، في العصر الرومانسي ، فرقاً عظيماً . فأما ماضيهم فهو تلك العصور

الوسطى الغوطية المظلمة . ودعوتهم تلك تتسم بالهروب من الاتجاه المادي الذي طغى على اوروبا منذ بداية العصر الآلي . واما ماضينا الذى ندعو اليه فهو تلك القرون التي شعت فيها الحضارة العربية الزاهرة ، بعلومها وفلسفاتها وفنونها وآدابها ، فليس الماضي الذي ادعو اليه عصراً وسيطاً ، وانما هو ذروة في التاريخ الانساني . غير ان هذه الحقيقة، حقيقةالفرق بين عصر الحضارة العربية والعصر الاوروبي الوسيط، قد غابت عن ذهن الناقد وفي ذلك تجاوز اكيد للحقائق التاريخية .

ولقد تسربت في الحقبة الطويلة التي امتد فيها نفوذ الاعاجم والاتراك اخلاق دخيلة هجينة ، عزلت الشعب عن اخلاقه الاصلية التاريخية ، ولا تزال هذه الاخلاق الدخيلة التي تربي التعصب الديني وتقضي على الدور المخصص للمرأة في المجتمع العربي . وتقطع صلة الانسان بالحياة ، قلت انها لا تزال تنخر جسم حياتنا الاجتماعية، وان عمل هذه« الاخلاق »المستمر، ليدل بصراحة على ان الانفجار ما يزال آخذاً برقابنا ، واوافق الاستاذ قدري قلعجي على ان هذا النوع من « الاخلاق » لا يسير بنا نحو الانحطاط فحسب ، بل يقتل فينا كل احساس بالكرامة والاباء ويصلنا بالخرافة والعزيمة واوهام الشعوذة ، واول ميزة لهذه الاخلاق انها تقلب مفاهيم الشيم العربية ، فالايمان ينقلب تزمتاً ، والحلم ضعفاً والداعية تقاعساً ، وهذه الاخلاق التي تواكب التعصب الديني هي مايقطع صلتنا بهذه الارض، وما يلغي الشعور الوطني ويقوي الشعور الطائفي. غير ان الحملة على هذه الاخلاق لا يعني ان نرفض اخلاقنا القومية . ويخطيء الناقد عندما يدعي اننا ما زلنا نحمل هذه السجايا . وكما ان على الاحياء الخلقي ان يحارب تلك الاخلاق المزيفة فان عليه ان يواجه ايضاً الميوعة الخلقية التي امتدت تحت ظل المستعمر ، لان هذا التحلل الخلقي الاوروبي ، هو اول ما يقوض روح المسؤولية في الفرد العربي ، ويضعف ارادة المواطن .

إن لنا طابعنا التاريخي المميز ، ونحن اقدم من اوروبا واقدر منها على الاستمرار في التاريخ . ان الكاش الاوروبي يتربع بكل كثافته المادية على صدر العالم ، والعالم تبعاً لذلك يتنفس في ثقل ينذر بالموت والانقراض للجنس البشري . وان نداء « لسنا اوروبيين » ليدل على ان الحلول الاوروبية لا يمكن ان تجدي شيئاً في وضعنا،بل ان الحلول الاوروبية كالكابوس الذي يرهق كياننا العربي .. فنحن في حاجة الى حل عربي صادر عن حاجتنا . ومما يؤسف له ان الناقد كان اوروبياً تماماً ، وكذلك كان الاستاذ عبد الله القصيمي ، وقد لاحظ الدكتور عبد القادر القط ذلك في نقده مقال الاستاذ القصيمي : « حسبك ان تقرأ كتاباً واحداً في الادب الاوروبي عن تلك الموضوعات لتظفر بكثير من مثل تلك الاقوال » . ولم يعترض الاستاذ قلعجي على هذا النقد الا بالقول : « ان هذه الاقوال التي قد تجد كثيراً منها في كتاب اوروبي واحد ، والتي يرددها العامي في بلادنا بحماسة ، هي من جوامع الكلم التي تمتاز بالقوة والروعة والبلاغة المعجزة، وهي لا تقل عن مثيلاتها من كلمات مونتسكيو وروسو وديدرو وغيرهم من اعلام الفكر . » والاستاذ قلعجي فيما يبدو لم يشأ ان يتعرض الى هذا الجانب من الفكرة ، وكل ما اثاره هو الانتقاص من روعة كلمات الاستاذ القصيمي ، غير انني اذكره بانني لم اكن انتقد قصة ولا قصيدة ، واعتقد ان هذا هو موقف الدكتور عبد القادر القط .

ومما يثبت عدم صلاحية الحلول الاوروبية فشل الانظمة الاوروبية المطبقة في الاقطار العربية ، فلا الشعب استطاع تذوقها ولا هي استطاعت ان تتمثل حاجات الشعب . فقصرت تبعاً لذلك عن النهوض بالشعب ، واذا هي سارت به فهي تسير باتجاه غير اتجاهه الاصيل اي انها تفرض عليه مصيراً غريباً عنه . وان فشل النظام البرلماني قد ظهر صريحاً من الانقلابات المتكررة في جميع الاقطار العربية ، لجعل هذه الانظمة اقرب الى طبيعة الشعب . فمن اتى بهذه الانظمة اتى بها جاهزة كالثياب التي لا تراعي شكل الجسم الصحيح ، وتراعي بدلاً منه الطول والعرض والاستدارة .

ولكن ارجو ألا يفسر هذا النقد بأنني ارفض الانظمة الديموقراطية، فكل ما اريده هو ان يجري تعديل على هذه الانظمة المنطقية حتى تصبح موافقة لواقعنا ولانطلاقنا نحو مستقبل افضل اذ ما تزال هذه الانظمة اوروبية الروح والطابع . ولذلك فانني ارى ان تدخل الروح العربية على هذه الهياكل الاوروبية ، علينا في الحقيقة ان نقف من اوروبا موقف شعب له شخصيته وله تاريخه ، فلا نفرق بروحها لنتلف روحنا . كما ان علينا الا نقف منها موقفاً سلبياً ، ان في وسعنا ان نأخذ عنها كما اخذت هي عنا وعن اليونان .

وبهذه الجوانب الفسيحة تنشأ نهضتنا القومية، فتحتفظ اولاً بطابعنا التاريخي ومقوماتنا الخلقية والوجدانية ، وتنشأ مع ذلك كشعب حديث مؤمن بمستقبله متمكن من حاضره .

***

لقد بقيت ناحية جديرة بالعناية ، وهي ان الاستاذ قدري قلعجي قد سخر من تحذيري اخواني العرب من امكان استغلال اليهود لاخطائنا ، ولقد زور قصدي في ذلك . غير انني انبه الاستاذ قلعجي الى ان اليهود يحاولون محاولة جديدة تهديم كياننا الخلقي ، وهذا ما ذكرته في مقالي « شريعة الهدم في الانجيل الضائع » تعليقاً على آراء الاستاذ القصيمي واعيد ذكره هنا ، ذلك ان شعبنا اذا غرق في الميوعة الخلقية ، فانه سيصبح في قبضة اليهود . ولقد كانت توصيات زعماء الصهيونية هي « تهديم اخلاق الشعوب ونشر الدعارة والترف ، وهدم التقاليد القومية ... » وهذا ما يجب ان نعمل لتلافيه .

***

هذا ، وفي ختام هذا المقال اؤكد للاستاذ قدري قلعجي انني ما ناقشته ولا ناقشت من قبل الاستاذ القصيمي ، عن امور شخصية ، كما انني لم اناقشهما على القوة البلاغية او الشعرية في اسلوبهما الرشيق . ذلك ان ما كتبه كل منهما لم يكن قصيدة شعرية ولا قصة ، بل كان عرضاً لأمور تهم

صدر حديثاً

عشر قصص عالمية

من اروع النتاج الغربي المعاصر

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

دار العلم للملايين

كل انسان عربي ولذلك فانني احيل الغمزات وكل ما ورد من هذا القبيل على القاريء الكريم ليحكم بنفسه عليها .

قدموس — سامي عطفه

الابطال .. « والبطولة ! »

بقلم محيي الدين محمد

« ولكن من الممكن ان يكون بطل الرواية حراً تماماً ... اجل من الممكن ذلك ، ولكن في حالة واحدة ، هي ان يجعله المؤلف متجرداً من اي لون من الوان المخلوقية ، حراً تماماً ، لا يؤمن بشيء الا بانسانيته ، يتصرف وفق ظروفه ، دون خضوع لمعتقد من المعتقدات او من الافكار تستعبده ، وتملي عليه تصرفات بعينها ... »

١ — يسمح لنا الاستاذ (عواد) ان نخبره بأنه قد دلف طائعاً الى جيبنا منذ الفقرة الثامنة ، والتي نقلتها بكاملها (اعلاه) من [نقده .. ١] لمقالنا ...

والواقع اننا ما قصدنا الا لاثبات ما (ابتكره) الاستاذ عواد ... ان ندل بحرية المؤلف ذاته من صميم حرية البطل المستعمل كمرآة ... ومن هو البطل اذا لم يكن جسداً وأعصاباً مؤلفة ..؟!

... ان عصابية (موباسان) التي اخرجت بطل (الكرة الغروية) ، وجنونه الذي برز بوضوح في (المهول) ومنتهى ثباته الذي دل بروعة مخه في (آل تليبه) ، تنهى في حسم مشكلة (حرية الابطال) الفرعية .. فما كان ابطال (موباسان) الا نفسه موزعة على (كورنت دي فورفيني ، وشالى ، ودى لا فاليه) ، ولم يكن كل بطل ممثلاً لزاوية من بعض المؤلف ؛ وانما كان كلا له ... كان درجة بأكملها من درجات البطل المتعددة ، فهو ليس مزروعاً في الشر ، وليس مزهراً في الخير ... انما هو ارتدادات عديدة بين كل تلك النزوعات المختلفة ... [موباسان صغير .!!] يمثل ما للمؤلف نفسه من حرية باختيار المواقف ... لا بخلق المصائر .!!

وما دمنا نختلف منذ البدء ، بتقريرك الذي تزعم فيه سقوط الافراد في (المخلوقية) ، فالمؤلف نفسه اذن يصبح رقيقاً ، وتفتيي احجيتك عن موقف يختلف تماماً عن موقفاً .. فنحن نقول بحرية المؤلف ، وبالتالي حرية البطل ، وما دام البطل حراً فهو غير محتاج بالمرة الى تبرير .. اذ لا يعني سوى ان تصرفات البطل غاية في الغرابة ، وتحتاج ايضاحاً ، وهو ما نهكره حتماً ، إذ يؤدي اقراره الى السقوط في احابيل علم النفس .. ولو مبروزو خاصة ..

ان للفرد الحر اتخاذ ما يشاء من مواقف ، ازاء الاحداث المعينة ، ومحاولة التبرير واضحة في انها وشاية للقاريء كي يقتنع بصحة المواقف .. او كي يضخم ، وهنا يبتعد ما نقصده عما يقرره الكاتب ، فنحن نريد للقاريء ان (يدهش) ازاء التصرف الغريب ، ودهشته تؤكد آخريته بالنسبة لذات البطل المفرطة في انغلاقها ...

٢ — ان الماركسي يحتاج حقاً لاله (ماركس) ، والمتدين كذلك .. أما الوجودي ، فلا يحتاج (لسارتر) ، فليس ثمة ما هو مقرر كقانون ، ان مهنة الوجودية ، هي كشف حرية الانسان ، ان تدله بما هو موجود ومعطى بقدر ما هو سابق في وعيه .. ان تضيء له طريقه الشخصي ، فليس ثمة ما هو إلهي غير الانسان نفسه . غير الذات التي رفضت عبودية ما هو قطيعي ، وتفردت بوضعيتها .. (وإن الاتجاه الأخير « لسارتر » يدل بوضوح على ثبات حريته ، فهو كفرد ، كجان بول سارتر ، له ان يصبح ماركسياً او زراد شتياً .. معتقداً او غير معتقد .. بطريق حريته .. وهو يدل باتجاهه الذي يختاره ، على حريته التي ليست الا ذاته) .

واولئك الذين عرفناهم باسماء (هاملت واوثيللو وياجو) لم يكونوا سوى ذلك الفرد الحر (وليم شاكسبير) ، والذي وعى حريته ، ففاضت في اندفاعات تيارية صاخبة ، بمثل ما للحياة نفسها من صخب وانعدام روية ، ومحض صلابة ..

فاذا ما نزع عن الفرد نضوجه ذلك الرائع ، أصبح الطريق الذي يؤدي لمنعطف انسانيته مهدداً بأن يلتف من جديد حول إطاره الفث طاويا نزوعات اشد اسفافاً من نزوعات سبقت وأهملت في مهاوي النسيان ..

على أن [الحالة الواحدة] — وهذا استثناء من الكاتب ! — ليست إلا (الحالة) التي يطالب بها وعي أعمق انفساحاً ، وانفتاحاً في صميم صبابات تلف في تيهها الوعي الآخر ، والذي يظن .... (احسبني متوقفاً هنا ، خوف الاطالة ؛ والوقوع في التكرار .!!)

٣ — معنى حرية البطل ليس ان يخلق اقداره ! بنفسه [سذاجة هذا الرأي قاطعة بالطبع] بل هو : ان يواجهها ، ان يجيب بوعي كامل .. خارج عن الأحكام الملفقة والمرسومة له ، السابقة على وعيه ، ان يواجه ظروفه بلا معتقد يمثل هو معنى المواجهة .. اذ ان المفهوم في موقف العقائدي هو ان المواجهة تحدث بين الظرف من جهة ، والاعتقاد من جهة اخرى ، وليس بين الظرف والانسان نفسه كحرية .. كطرف حقيقي ومقابل .. كانتفاضة .. والناتج هو باستمرار تطويع الظرف نفسه للحلول التي يفرضها المعتقد او الدين ، فهو ليس حرا اكثر من جماد بلا وعي !. انه يمثل استسلاماً إزاء ما هو محتاج الى دفقات نضوج عارية عن كل ما هو مقرر ومكتوب وهزومي ...

٤ — اما عن السؤال الاخير فهو ملاة حقة : ان الكاتب يظن (افعال البطل الغير متوقعة) [لعبة استغباء] بينه وبين القاريء ، ثلاث ورقات يجب الكشف عن وجه مليكتها !! .. لا يا سيدي .. لا .. لا .. أن يسلك كل الابطال ذلك المسلك الذي [لا يتفق مع منطقية الحوادث] والا سقطنا مرة اخرى في (مخلوقية البطل) اذ يعني وجوب كون الابطال غير متفقين مع التسلسل الروائي عبوديتهم لهذا القانون ، وهذا ما ننكره من اصله ...

القاهرة — محيي الدين محمد

---

١ تتيح لنا هذه النظرة المغايرة (بما فيها من تناقض) ان نرد على نقد الدكتور (القط) لمقالنا [العدد الثامن] بما يلي : ما من مسلمات في (الاستتيك) ، والذي قننه (ارسطو) يناقش حتى الآن من اساتذة (كسولي برودوم وهربرت ريد) .

مع ما للكاتب نفسه من فهم عجيب لها ..